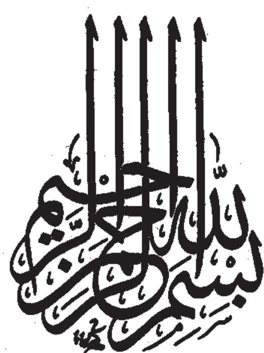

بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب فيه

تبصير أولي النهى ومعالم الهدى

أو

التبصير في معالم الدين

القَوْلُ في الاخْتلافِ الرَّابع

٣٣ ـ قال أَبو جَعْفر: (أهل الكبائر وحكمهم)

ثم كانَ الاخْتِلَافُ الرَّابعُ الذي حَدَثَ بعد هذا الاخْتلافِ الثَّالِثِ الذي ذكرناه، وذلك اخْتِلَافُهُم في الكَبَائِرِ.

(أ) فقال بعضهم: هُمْ كُفَّارٌ، وهو قَوْلُ الخَوارِجِ.

(ب) وقال بَعضُهُم: ليسوا بالكُفَّارِ الذين تَحلُّ دِمَاؤُهُم وأَموالُهُم، ولكنَّهم كُفَّارُ نِعْمةٍ، وهُمْ مُنافقون؛ لأَنَّ لَهمْ حُكمَ المؤمنين[1].

---

(١) هو في الحقيقة قول طائفة من الخوارج تُعرَف بالإباضية أَتباع عبدالله ابن إباض التميمي (ت ٨٦هـ) وهو الذي فارق الأزارقة، وهم جمهور الخوارج، ولذا إباضية هذا الزمان ينكرون كونهم خوارج، وتوجيهه أَنهم ينكرون مذهب جمهور الخوارج الذي هو مذهب نافع بن الأزرق مع اشتراك الجميع في أُصولهم الأُولى. يقولون في زمننا هذا بنفي رؤية الله أَبداً، والقول بخلق القرآن، وتحليل ربا الفضل دون النسيئة، وفاعل الكبيرة عندهم ما لم يستحلها كافر كفر نعمة منافق في حكمه الدنيوي، مخلد في النار في الآخرة، ولهذا صرحوا بأَن الخلاف بينهم وبين المعتزلة بقولهم في المنزلة بين المنزلتين خلاف لفظي. وكتبهم على كثرتها ـ لا كثَّرها الله ـ طافحة بهذا. قال إمامهم المتأخر ومجتهدهم نور الدين عبدالله بن حميد السالمي (ت١٣٣٢هـ): =

(ج) وقال آخرون: ليسوا بِمؤمِنين ولا كُفَّار، ولكنَّهم فَسَقةٌ أَعدَاءُ الله، ويُوارِثُون في الدُّنيا المُسلمين ويُناكحُونهُم ويُحكَمُ لهم بحكُمِ الإسلامِ، غيرَ أَنَّهم مِنْ أَهلِ النَّار مُخلَّدونَ فيها. وهذا قَوْلُ المُعْتَزِلَةِ[1].

والكفر قسمان جحود ونعـــم وبالنفاق الثاني منهما وسم
وامنعه في الأول حتماً وهو ما لرد تنزيل ومرسل نمــــا

وانظر شرحه لهذين البيتين وما سبقه من كلامه في كتابه: مشارق أنوار العقول ص٣٩٥ ـ ٤٠٣.

(١) هم أتباع واصل بن عطاء الغزَّال (٨٠ ـ ١٣١هـ) الذي اعتزل حلقة الحسن البصري رحمه الله لما سُئل عن مرتكب الكبيرة فذكر مقالة الخوارج، وذكر قول السلف وأيده، فاعترض عليه واصل، وقال بقول المعتزلة: إنه لا مؤمن ولا كافر بل في منزلة بين هاتين المنزلتين في الدنيا، مخلد في النار في الآخرة، ثم اعتزل الحلقة وجماعة من شاكلته، وتطور مذهبهم فصارت هناك مدرستان لهم: معتزلةبغداد، ومعتزلة البصرة، وكثرت طوائفهم، وتجمعهم أُصول خمسة هي:

١ ـ التوحيد: وهو نفي صفات الله، والقول بأن كلام الله القرآن مخلوق.
٢ ـ العدل: وهو قولهم في القضاء والقدر بأن العباد يخلقون أفعالهم ولا تعلق لها بخلق الله.
٣ ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو الخروج على أئمة الجور إذا قدروا على ذلك.
٤ ـ الوعد والوعيد للطائعين بجنته، والعاصين بخلودهم في ناره بسبب معاصيهم.
٥ ـ المنزلة بين المنزلتين: وهو قولهم بأن الفاسق والعاصي في الدنيا ليس مؤمناً ولا كافراً، بل يسمونه فاسقاً في منزلة بين منزلة المؤمن، ومنزلة الكافر. قبَّحهم الله.

وهم في الحقيقة في الصفات أفراخ الجهمية، فبابهم واحد، ولذا أطلق عليهم =

وكُلُّ أَهلِ هذه المَقالاتِ الثَّلاثِ التي وَصَفنا صِفَةَ قَائِليها يَزعمون أَنَّ أَهلَ الكَبائِرِ مِنْ أَهلِ التَّوحِيد مُخلَدُونَ في النَّارِ لا يَخرجُون مِنْها.

(د) وقال آخرون[1]: أَهلُ الكَبائِرِ مِنْ أَهلِ التَّوحِيدِ الذين وَحَّدُوا وصدَّقوا رسولَ الله ﷺ، وأَقرُّوا بِشَرائِعِ الإِسلامِ مُؤمِنُون بإِيمانِ جِبريلَ ومِيكَائيلَ، وهمْ مِنْ أَهلِ الجَنَّةِ.

وقالوا: لايضُرهُمْ مَعَ الإِيمَانِ ذَنْبٌ، صَغيرةً كانَتْ أَو كبيرةً، كما لايَنْفَعُ مع الشِّركِ عَملٌ.

قالوا: والوعيدُ إِنَّما هو لأَهلِ الكُفرِ بالله، المُكذِّبين بِما جَاء به

= السلف في هذا الباب الجهمية، وهم يضادونهم في باب القدر، وباب الإيمان هذا، والمعتزلة وإن بادت فرقة، إلاَّ أن لكل قوم وارث، فقد ورث فكرهم أو بعضه فرق كالإمامية الرافضة، والزيدية، والإباضية، ولا أنسى بعض عقلاني هذا الزمن وأمثالهم، كفى الله المسلمين شرهم.

(١) وهم أهل الإرجاء وكانت تقول به الكُرَّامية أتباع محمد بن كرّام السجستاني زاهد جاهل اغْتُرَّ به، مات سنة ٢٥٥ هـ وهم الذين اشتهر عنهم القول بأنه لا يضر مع الإيمان ذنب، كما لا تنفع مع الكفر طاعة، والإيمان عندهم قول باللسان فقط. مع ضلالهم في صفات الله.

ومن المرجئة: الجهمية،وهم المرجئة المحضة، ويقولون: الإيمان هو معرفة الله، والكفر هو الجهل، وعليه: إبليس وفرعون والنمرود مؤمنون كأبي بكر وجبرائيل. ومن المرجئة: الماتريدية والمشهور عن الأشاعرة بأن الإيمان هو تصديق القلب ومعرفته. وقول الماتريدية أثر على فقهاء الأحناف تأثيراً واضحاً، والمرجئة عقيدة داخلت عدة فرق متنازعة في أصولها.

رسُوله ﷺ.

قول أهل السنة في أهل الكبائر ودلائله

٣٤ ـ وقال آخرون: هُمْ مُؤمِنُونَ غير أَنَّهم لَمَّا رَكِبوا مِنْ مَعاصي الله فاجْترحوا الذُّنُوبَ في مَشيئَةِ الله إِنْ شَاءَ عفا عنهم بِفَضلِه فأَدخَلهم الجَنَّة، وإِنْ شَاء عَاقَبهم بِذُنوبِهم[١]، فإِنَّه يُعاقِبهم بِقَدرِ الذَّنْبِ ثمَّ يُخرِجُهم مِنْ النَّارِ بعد التَمحِيصِ فيُدخلهُم الجَنَّةَ[٢].

---

(١) وهذا في سائر الذنوب غير الشرك به كما قال تعالى في آيتي النساء: ﴿إن الله لا يغفر أن يُشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ فكل ما دون الشرك بالله داخل تحت مشيئة الله بنص الآيتين.
ولما في الصحيحين من حديث عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال وحوله عصابة من أصحابه رضي الله عنهم: «بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوا في معروف، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب في الدنيا فهو كفَّارة له، ومن أصاب من ذلك شيئاً ثم ستره الله فهو إلى الله ـ إن شاء عفا عنه، وإن شاء عاقبه» فبايعناه على ذلك، رواه البخاري في عشرة مواضع أولها في كتاب الإيمان برقم ١٨، ومسلم برقم ١٧٠٩، في الحدود. والنصوص في هذا الباب كثيرة جداً صريحة ومستنبطة في الدلالة على قول المؤلف.

(٢) وهذا مثبت في النصوص الثابتة عن النبي ﷺ من أصح الطرق في الصحيحين وأفرادهما وغيرهما، أن الله يخرج من أهل النار أهل الإيمان والتوحيد ممن في قلبه أدنى أدنى حبة من خردل من إيمان حيث يمحصون من ذنوبهم بها وهو تحقق الوعيد المجمل بلزوم دخول النار أحد من أهل الذنوب ممن توعدهم الله بذلك حتى إذا أخرجهم منها، وقد صاروا حمماً أنبتهم من ماء الحياة، ثم أدخلهم الجنة، ولذا ـ وبالمناسبة ـ أسوق هذا الحديث العظيم المتفق على صحته عند الشيخين: =

= فعن أبي هريرة قال: قال أُناسٌ: يا رسول الله، هل نرى ربَّنا يوم القيامة؟ فقال: «هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب». قالوا: لا يا رسول الله، قال: «هل تضارون في القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب». قالوا: لا يا رسول الله، قال: فإنكم ترونه يوم القيامة كذلك، يجمع الله الناس، فيقول: من كان يعبد شيئاً فليتبعه، فيتبع من كان يعبد الشمس، ويتبع من كان يعبد القمر، ويتبع من كان يعبد الطواغيت، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها، فيأتيهم الله في غير الصورة التي يعرفون، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: نعوذ بالله منك، هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا، فإذا أتانا ربنا عرفناه، فيأتيهم الله في الصورة التي يعرفون، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: أنت ربنا فيتبعونه، ويضرب جسر جهنم، قال رسول الله ﷺ: فأكون أول من يجيز، ودعاء الرسل يومئذ: اللهم سلم سلم، وبه كلاليب مثل شوك السعدان، أما رأيتم شوك السعدان». قالوا: بلىٰ يا رسول الله، قال: «فإنها مثل شوك السعدان، غير أنها لا يعلم قدر عظمها إلا الله، فتخطف الناس بأعمالهم، منهم الموبق بعمله ومنهم المخردل، ثم ينجو، حتى إذا فرغ الله من القضاء بين عباده، وأراد أن يخرج من النار من أراد أن يخرج، ممن كان يشهد أن لا إلا إلا الله، أمر الملائكة أن يخرجوهم، فيعرفونهم بعلامة آثار السجود، وحرم الله على النار أن تأكل من ابن آدم أثر السجود، فيخرجونهم قد امتحشوا، فيصب عليهم ماء يقال له ماء الحياة، فينبتون نبات الحبة في حميل السَّيل، ويبقى رجل مقبل بوجهه على النار، فيقول: يا رب، قد قشبني ريحها، وأحرقني ذكاؤها، فاصرف وجهي عن النار، فلا يزال يدعو الله، فيقول: لعلك إن أعطيتك أن تسألني غيره، فيقول: لا وعزتك لا أسألك غيره، فيصرف وجهه عن النار، ثم يقول بعد ذلك: يا رب قربني إلى باب الجنة، فيقول: أليس قد زعمت أن لا تسألني غيره، ويلك ابن آدم ما أغدرك، فلا يزال يدعو، فيقول: لعلي إن أعطيتك ذلك تسألني غيره، فيقول: لا وعزتك لا أسألك غيره. فيعطي الله من عهود ومواثيق أن لا يسأله غيره، فيقربه إلى باب الجنة، فإذا رأى ما فيها سكت ما شاء الله أن يسكت، ثم يقول: رب أدخلني

١ ـ قالوا: ولا يَجوزُ في عَدْلِهِ أَن يُعاقِبَ عَبدَه على ذُنُوبِهِ، ولا يُجَازيهِ على طاعَته إِيَّاه.

٢ ـ قالوا: بَلْ الذي هو أَولى به الأَخذُ بالصَّفحِ والفَضْلِ عن الجُرمِ.

٣ ـ قالوا: فإِنْ هو لَمْ يصفحْ عن الجُرمِ وعَاقبَ عليه، فغَيرُ جَائزٍ أَنْ لا يُثيب على الطَّاعةِ؛ لأَنَّ ترك الثَّوابِ على الطَّاعةِ مع العِقَابِ على المعصيةِ جَوْرٌ. قالوا :والله عَدْلٌ لا يَجُور وليس ذلك مِنْ صِفَتِهِ.

وقال آخرون فيهم: هم مُسلمون وليسوا بمؤمِنين، لأَنَّ المُؤْمِن هوالوَلِيُّ المُطِيعُ لله.

قالوا: وقوْلُ القائِل: فُلانٌ مُؤمِنٌ، مَدحٌ مِنه لِمنْ وصفهُ.

قالوا: والفَاسِقُ مَذمُومٌ غيرُ مَمدُوحٍ، عَدوُ الله لا وليّ له.

الجنة، ثم يقول: أَو ليس قد زعمت أَن لا تسألني غيره، ويلك ياابن آدم ما أَغدرك، فيقول: يا رب لا تجعلني أَشقى خلقك، فلا يزال يدعو حتى يضحك، فإذا ضحك منه أَذن له بالدخول فيها، فإذا دخل فيها قيل: تمن من كذا، فيتمنى، ثم يقال له: تمن من كذا، فيتمنى، حتى تنقطع به الأَماني، فيقول له: هذا لك ومثله معه». قال أَبو هريرة: وذلك الرجل آخر أَهل الجنة دخولاً.

قال: وأَبو سعيد الخدري جالس مع أَبي هريرة لا يغير عليه شيئاً من حديثه، حتى انتهى إلى قوله: «هذا لك ومثله معه». قال أَبو سعيد: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «هذا لك وعشرة أَمثاله». قال أَبوهريرة حفظت: «مثله معه».

قالوا: فغيرُ جَائزٍ أَنْ يُوصفَ أعداءُ الله بِصفَةِ أوليائِه، أَو أَوْلِيَاؤه بصفَةِ أعدائه.

قالوا: فاسمُه الذي هو اسمُه الفاسقُ الخَبيثُ الرَّديءُ لا المؤمنُ.

قالوا: وتسميته مُسْلِماً باستسلامِه لحُكم الله الذي جعله حُكْمَاً له ولأَمثالِه مِنْ النّاس.

٣٥ ـ قال أبو جعفر:

والذي نَقُولُ: معنى ذلك أَنَّهم مُؤمِنُون بالله ورَسُولِه، ولا نقول: هُمْ مُؤمِنُون بالإطلاقِ؛ لِعلَلٍ سَنذكُرها بَعدُ.

ونقول: همْ مُسلمونَ بالإطلاقِ؛ لأَنَّ الإسلامَ اسمٌ للخُضوعِ والإذْعَانِ فكلُّ مُذْعِنٍ لِحُكمِ [الإسلامِ مِمَّن وَحّد][(1)] الله وصَدَّق رسولَه ﷺ بِما جَاء به مِنْ عِنده، فهو مُسلِمٌ.

ونقول: هم مُسلِمونَ فَسَقةٌ عُصَاةٌ لله ولِرسَولِه. ولا ننزلَهم جَنَّة ولا نَاراً، ولكنَّا نَقُولُ كما قال الله تعالى ذكره: ﴿إِنَّ الله لا يغفر أَن يُشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾.

فَنقُول: همْ في مَشيئَةِ الله تعالى ذكره، إنْ شَاءَ أَنْ يُعذبَهم

---

(١) ما بين معكوفين مكتوب بنفس القلم في الحاشية، ويستلزمها المقام فهي ساقطة من الكتابة، ثم استلحقت في الحاشية، مما يدل على أنها قرئت على أصلها بعد نسخها، والله أعلم.

عذّبهُم وأَدخَلهم النَّارَ بِذنُوبِهم، وإِنْ شَاء عفا عنْهم بِفَضلِه ورحمتِهِ فأَدخَلهم الجَنَّةَ، غيرَ أَنَّه إِنْ أَدخَلَهم النَّار فعاقبهم بها لَمْ يُخلِّدهمْ فيها، ولكنَّه يُعاقِبهُم فيها بِقَدرِ إِجرامِهِم، ثُمَّ يُخرجهُم بعد عُقوبَتِهِ إِيَّاهُم بِقَدرِ ما استحقوا فيُدخلَهم الجَنَّةَ؛ لأَنَّ الله ـ جَلَّ ثَناؤه ـ وَعدَ على الطَّاعَةِ الثَّوَابَ، وأَوعدَ على المَعصِيَةِ العِقَابَ، ووعَد أَنْ يَمحوَ بالحَسنَةِ السَّيِّئَةَ ما لمْ تكُنْ السَّيِّئَةُ شِرْكاً.

فإِذْا كان ذلك كذلك فَغيرُ جَائِزٍ أَنْ يُبطلَ بِعقَابِ عَبدٍ على مَعْصيتِهِ إِيَّاه ثَوابَه على طَاعَتِهِ؛ لأَنَّ ذلك مَحوٌ بالسَّيِّئَةِ الحسنة لا بالحَسنَةِ السَّيِّئَةَ، وذلك خلافُ الوَعدِ الذي وعَدَ عِبَاده، وغَيرُ الذي هوبه مَوصُوفٌ مِنْ العَدْلِ والفَضْلِ والعفوعن الجُرم.

والعَدْلُ: العِقابُ على الجُرْمِ، والثَّوابُ على الطَّاعَةِ.

فأَمَّا المُؤاخَذةُ على الذَّنْبِ وتركُ الثَّوَابِ والجَزاءِ على الطَّاعَةِ، فلا عدلَ ولا فَضلَ، وليس مِنْ صِفَتِهِ أَنْ يَكونَ خَارِجاً مِنْ إِحدى هاتَين الصِّفَتين.

٣٦ ـ وبعد: فَإِنَّ الأَخبـارَ المروية عنْ رَسولِ الله ﷺ متظاهرةٌ بِنَقلِ مَنْ يَمْتَنِعْ في نَقلِه الخطأ والسهوُ والكَذِبُ، ويُوجِبُ نقلُه العَلِم، أَنَّهُ ذكرَ أَنَّ الله جلَّ ثَناؤه يُخرِجُ مِنَ النَّارِ قَوْماً بعد ماامتَحَشوا

وصاروا حُمَماً[1]؛ بِذنوبٍ كانوا أَصابوهَا في الدُّنيا ثُمَّ يُدخلهم الجَنَّةَ. وأَنَّه صلَّى الله عليه وسلَّم قال: «شفاعتي لأَهلِ الكَبائِرِ مِن أُمَّتي»[2]. وأَنَّه عليه السَّلام يَشفَعُ لأُمَّته إِلى ربِّه - عزَّ وجلَّ ذِكرُه -

---

(١) معنى حمماً أي فحماً، ويدل لما ذكره الشيخ ابن جرير ما في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار يقول الله: من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجوه، فيخرجون قد امتحشوا وعادوا حُمماً، فيلقون في نهر الحياة فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السَّيل، أو قال حمية السيل، وقال ﷺ ألم تروا أنها تخرج صفراء ملتوية». رواه البخاري في كتاب الرقاق - باب صفة الجنة والنار رقم ٦١٩٢، ومسلم في الإيمان رقم ١٨٤.

(٢) أخرجه الإمام أحمد ٣/ ٢١٣، من طريق بسطام بن حريث عن أشعث الحراني عن أنس ابن مالك رضي الله عنه مرفوعاً. وأخرجه أبو داود من طريق سليمان بن حرب ثنا بسطام به رقم ٤٧٣٩، وأخرجه الترمذي في جامعه رقم ٢٤٣٦، ثنا محمد بن بشار ثنا أبو داود الطيالسي عن محمد بن ثابت البناني عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما مرفوعاً به، وقال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه يستغرب من حديث جعفر بن محمد. وانظر : الطيالسي برقم ١٦٦٩، ورواه الطيالسي من وجه آخر برقم ٢٠٢٦، من طريق الحكم عن ثابت به. ومن طريقه أخرجه ابن خزيمة في صحيحه برقم ١٧٦، وكذا ابن حبان في صحيحه برقم ٢٥٩٦، وأخرجه ابن أبي عاصم في السنة من ثلاثة طرق عن أنس وجابر وابن عمر رضي الله عنهم (٨٣٠ - ٨٣٢)، وطريق الأخير عن شيبان بن فروخ ثنا حرب بن سريج المنقري، ثنا أيوب السختياني عن نافع عن ابن عمر قال: مازلنا نمسك عن الاستغفار لأهل الكبائر حتى سمعنا من نبينا ﷺ يقول: «إن الله لا يغفر أن يُشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء» قال: «فإني أخرت شفاعتي لأهل =

فيُقالُ: أَخرِجْ مِنْها مِنْهم مَنْ كانَ في قَلبِهِ مِثقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَردْلٍ مِنْ إيمَانٍ[1]. في نَظائِرَ لِما ذَكرنا مِنَ الأَخْبَارِ التي إنْ لَمْ تَثْبُتْ صِحَّتُها لَمْ يَصح عنه خَبرٌ ﷺ.



= الكبائر من أُمتي يوم القيامة» فأَمسكنا عن كثير مما كان في أَنفسنا. والحديث بالطريق الأولى صحيح فما بالك باجتماعها من أَوجه متعددة. وانظر: مجمع الزوائد ١٠/ ٣٨١.

(١) وحسبك أن تنظر إلى آخر كتاب الرقاق من صحيح البخاري، أَو كتاب الإِيمان في آخره من صحيح مسلم مع كتابي صفة القيامة ـ وصفة الجنة ـ فضلاً عن غيرهما من كتب السنة لتوقن بهذا الغيب، ولكن الشأن في الانقياد والتسليم والاتباع! فإن الله حرم الخلود في النار لمن في قلبه إيمان وخير. ولكن أوعد بالوعيد المجمل بالنار أهل المعصية، ولابد من تحقق الوعيد المجمل على بعض من أوعدهم الله لا على جميعهم، لأن وعده ووعيده حق وصدق لا يتخلف أبداً.